مجتمع النوير The Nuer

دراسة للعالم الأنثروبولوجي

إ٠إ٠ إيفانز بريتشارد

E. E. Evans Pritchard

عرض وتلخيص

دكتور / محمد الغريب عبدالكريم

١ ــ مقدمة :

هذا المقال هو عرض وتلخيص للدراسة الشيقه التى قام بها عالم الأنثروبولوجيا الانجليزى E. E. Evans Pritchard سنة ١٩٣٠ عن مجتمع النوير The Nuer فى السودان الجنوبى [(١)]، وبتكليف من حكومة الانتداب البريطانى حينئذ حيث كان يعمل فى ذلك الوقت أستاذا زائرا لتدريس مادة الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع فى جامعة القاهرة سنة ١٩٢٨ ٠

وفى الحقيقة أن " ايفانز بريتشارد " كغيره من علماء الأنثروبولوجيا قد اهتم بدراسة القبائل البدائية لأمور عدة تتعلق **أولا** بالرغبة الأكيدة فى دراسة هذه الأشكال من المجتمعات كأطر مرجعية يمكن الرجوع اليها عند الرغبة فى معرفة شكل مجتمعات أجدادنا فى الماضى البعيد ٠

ثانيا : أن دراسة مثل هذه الأشكال من المجتمعات البدائيه تكسب صاحبها شهرة عالميه لارتباط اسم المجتمع باسم دار سها ــ وفى الواقع أن دراسة النوير لايفانز بريتشارد قد أكسبته شهرة عالميه ووضعته فى

1- E. E. Evans Pritchard, " The Nuer ", London, Oxford, 1940.

قائمة علماء الأنثروبولوجيا المميزين ، وذلك منذ أن قام بنشر تقرير هذه الدراسة الأول سنة ١٩٣٨ والثان ١٩٥١ ٠

ثالثا : أن ايفانز بريتشارد كغيره من الأنثروبولوجيين طوال النصف الأول من القرن العشرين وهم يحاولون الحفاظ على شكل الدراسة التكاملية لعلم الأنثروبولوجيا وبالتالى شغفوا فى أن يطبقوا هذا المنهج الوظيفى متأثرين بدراسات " راد كليف براون " Radclief B. صاحب هذا المنهج والذى نقله من علم الاجتماع الى الأنثروبولوجيا فى فكرة تساند الظواهر الاجتماعية التى ظهرت لـ " دوركيم " ومن قبله أستاذه " أوجست كوت " ٠

وأخيرا : فان معظم علماء الأنثروبولوجيا المحدثين كانوا يحاولون منذ ظهرت دراسات " ليفى بريل " مؤسسة المدرسة الفرنسية فى الأنثروبولوجيا أن يثبتوا خطأ نظريته العنصرية والتى تؤكد فى وجود فروق جوهرية بين البيض والسود من البشر ـ وهذا ما اهتمت به دراسة " ايفانز بريتشارد " فى فرضها الرئيسى والتى حاولت تحقيقه ومؤداه " أنه لا يوجد فروق جوهريه فى درجات الذكاء الاجتماعى بين البيض والسود " ٠

هذا ـ والكاتب اذ يتناول بالعرض والتحليل لهذه الدراسة فان ذلك يتأتى لأهميتها كدراسة رائدة فى علم الأنثروبولوجيا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لمكانة " ايفانز بريتشارد " كأنثروبولوجى معاصر ٠

ويعتبر " ايفانز بريتشارد " E. E. Evan Pritchards هو أحد العلماء الأنثروبولوجيين الانجليز المحدثين ـ ومن مواليد سنة ١٩٠٢ ـ حصل على درجته الجامعية الأولى من جامعة أكسفورد فى التاريخ ، ثم توجه الى جامعة لندن سنة ١٩٢١ لدراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية ٠

وفى جامعة لندن تتلمذ " ايفانز بريتشارد " على يد عالم الأنثروبولوجيا " مالينوفسكى " B. Malinowski الذى كان يشغل

كرسى الأنثروبولوجى فى تلك الجامعة فى ذلك الوقت . والمعروف أن " مالينوفسكى " كان يؤمن ايمانا عميقا بالدراسات الحقلية وينفر من المناقشات النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية بحته ، وبالتالى قد تأثر " ايفانز بريتشارد " بوجهة نظر أستاذه هذه ، وخاصة عندما أكد " مالينوفسكى " بضرورة أن يعرف كل عالم أنثروبولوجى قبل دراسته لأى مجتمع نظرية علم الاجتماع وطرق ومناهج البحث فيه .

كذلك اتصل " ايفانز بريتشارد " بأستاذ آخر هو " سليجمان " C. G. Seligman الذى وجهه الى دراسة الشعوب والقبائل السودانية والنيلية فى جنوب السودان فى الفترة من سنة ١٩٢٦-١٩٣٦. ومن أهم هذه الدراسات الأنثروبولوجية الممتازة ما قام به على مجتمع النوير Nuer ومجتمع الأزاندى Azande المعروف باسم (نيام - نيام) .

هذا - ولقد قام " ايفانز بريتشارد " بتدريس مادة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع فى كثير من الجامعات - ومنها جامعة القاهرة سنة ١٩٣١ - ١٩٣٤ وفى سنة ١٩٤٦ شغل " أيفانز بريتشارد " أستاذ كرسى الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة أكسفورد بانجلترا وهو حتى الآن يقوم بتدريس هذه المادة بها .

وفيما يلى سوف نتناول بالعرض والتلخيص لأهم دراسة فى الأنثروبولوجيا قام بها " ايفانز بريتشارد " على مجتمع النوير فى السودان الجنوبى .

٢ - مجتمع النوير The Neur :

قام " ايفانز بريتشارد " باجراء دراسة ميدانية فى الأنثروبولوجيا على مجتمع النوير The Nuer فى الفترة من عام ١٩٣٠-١٩٣٦ بناء على طلب خاص له من حكومة السودان التى تحملت جميع تكاليف هذه الدراسة .

هذا ــ ولقد أقام " ايفانز بريتشارد " فترات متقطعة فى مجتمع دراسته لظروف مرضه التى منعته من الاقامة الدائمة فيه • وعلى الرغم من أن هذه الفترة التى أقامها " ايفانز " مع النوير تقترب من العامين الا أنه يقول أن هذه الفترة قليلة ، وأن المرض هو السبب فى قصرها ، لأن على كل أنثروبولوجى أن يشارك أفراد مجتمع بحثه حياتهم طوال فترة دراسته له دون انقطاع •

والملاحظ فى جميع الدراسات التى قام بها " ايفانز بريتشارد " عن المجتمعات البدائية (مثل النوير والأزاندى " أنه كان يهدف دائما الى تحقيق النظريات التى نادى بها بعض الباحثين السابقين من أمثال " ليفى بريل L. Bruil " عن العقلية البدائية • وحيث نجد " ايفانز " يبين فى دراسته بالأدلة القاطعة أن العقلية البدائية لا تختلف عن عقليتنا نحن المتحضرون ، وأنهم يعرفون مصلحتهم كما نعرف تماما ، بل ان تفكيرهم منطقى اذا حاولنا أن نعرف أسلوب حياتهم المادية • أما الحكم عليهم وعلى عقليتهم من أسلوب تفكيرهم الدينى والسحرى فانه اتجاه خاطىء ، فلو أن " ليفى بريل " درس حياة البدائيين المادية وعرف كيف يحافظون على حياتهم ويسعون وراء مصالحهم التى تهمهم لغير نظريته من أساسها • ولكننا كسيولوجيين نعرف أن " ليفى بريل " هو مثل كثير من أئمة علماء الاجتماع الفرنسيين لم يحاولوا النزول الى المجتمع لدراسته دراسة حقلية وذلك لما يحتاجه هذا من مجهود بدنى وعقلى ، واكتفوا فقط على الاعتماد بما كتبه الرحالة والمغامرون والعسكريون والتجار عن مجتمعات بدائية قد ارتادوها •

٣ ــ منهج الدراسة وأداتها :

اتخذ " ايفانز بريتشارد " أكثر من منهج وأداة عند دراسته لمجتمع النوير •

أما عن المنهج فقد اهتم ايفانز بالمنهج الوصفى فى دراسته

حيث أقر الكثير مما كتبه المبشرين والعسكريين وبعض الرحالة والتجار الذين ارتادوا مجتمع النوير واتصلوا بسكانه . كما أنه تعلم لغة الحديث عند النوير حتى يمكن له تفهم أمور حياتهم .

أى أن ايفانز قد استخدم المنهج الوصفى للحصول على أنواع من المعرفة حول مجتمع النوير عن طريق الماضى بقصد دراسته وتحليل بعض الظواهر الاجتماعية الحاضرة أو المشكلات الانسانية والعمليات الاجتماعية التى تسود مجتمع الدراسة فى الوقت الحاضر ، ذلك لأنه كثيرا ما يصعب علينا فهم حاضر الشىء دون الرجوع الى ماضيه .

أما عن الأدوات أو الوسائل التى استخدمها ايفانز فقد كانت كثيرة أهمها الملاحظة بالمشاركة Partioipant Observation ثم المقابلة غير الموجهة Unguided Interview هذا بالاضافة الى الرسوم والصور الفوتوغرافيه والخرائط التى توضح نشاط السكان فى مجتمع البحث .

هذا ــ ولقد قسم " ايفانز " تقرير دراسته عن مجتمع النوير الى قسمين :

الأول : تقرير يتضمن وصفا ديموجرافيا (سكانيا) وجغرافيا للمنطقة التى يعيش فيها سكان النوير ونظامهم السياسى . ويتضمن عدد السكان ونشاطهم ووصف حياتهم والسطح والمناخ الذى يسود منطقة الدراسة . كذلك تضمن التقرير الأول منهج الدراسة وطريقة جمع البيانات التى استخدمها ايفانز فى بحثه . ولقد نشر ايفانز هذا القسم أو الجوء الأول من تقرير دراسته على النوير فى كتابه الذى طبع فى أكسفورد بانجلترا سنة ١٩٤٠ بعنوان :

E. E. Evans Pritchard, " The Nuer ", Oxford, 1940.

الثانى : تقرير من خمسة فصول يتضمن دراسة لنسق القرابة

ونظام الزواج فى مجتمع النوير • ولقد نشر هذا التقرير فى اكسفـــــورد بانجلترا عام ١٩٥١ • ويرجع سبب تأخر نشر هذا التقرير هو قيام الحـرب العالمية الثانية • وطبع هذا التقرير بعنوان :

E. E. Evans Pritchard, " Kinship and Marriago Among the Nuer ", Oxford, 1951.

٤ ــ التقرير الأول للدراسة :

فى هذا التقرير وصف " ايفانز بريتشارد " حياة السكان ونظامهم السياسى فى قبائل النوير ، حيث يقول أنه درس فى هذا التقرير خصائص اقليم النوير بما فيه من ظواهر اجتماعية وظواهر جغرافية • وفى الحقيقة أن كل ما يهم الأنثروبولوجى ليس مجرد الظواهر الجغرافية فى ذاتها وانما تأثير هذه الظواهر فى تشكيل الحياة الاجتماعية والبنيان أو البنـــــاء الاجتماعى • حيث قد لوحظ أن جميع الأبحاث الاجتماعية التى أجريـت فى الستين سنة الأخيرة وعلى الأخص على أيدى الأنثروبولوجييـــــن البريطانيين كانت تهتم بدراسة البيئة دراسة تفصيلية من حيث تأثيرهـا فى الحياة الاجتماعية ، وكانت هناك اتجاهات فى أواخر القرن التاســع عشر وأوائل القرن العشرين نحو دراسة المظاهر الفيزيقية أو الجسمانيـة للانسانية التى تدخل فى نطاق الأنثروبولوجيا الطبيعية على أســاس أن هذه الصفات الجسمانية لهما تأثير واضح فى الحياة الاجتماعية ، ومـا أن ثبت أنه لا علاقة مطلقا بين التكوين الجسمانى والحياة الاجتماعية حـتى انصرف الباحثون فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن تسجيل الصفـــات الجسمانية وأحلو محلها تفاصيل البيئة •

ولقد حاول ايفانز بريتشارد أن يقدم صورة كاملة ومعرفة شامـــلة لأثر البيئة الجغرافية فى حياة النوير بالتفصيل ، ولكن اكتفى بأهـــم هذه الاثار لظروف خاصة سبب مرضه الشديد خلال فترة الدراسـة ، الى جانب التعقد الكبير فى بيئة هذا المجتمع •

هذا ــ وسوف نكتفى هنا بأن نقدم عرضا موجزا للتقرير الأول للدراسة كما كتبه ايفانز • وفيه نقوم بتوضيح مدى علاقة النوير بالبيئة فيما يتصل بالرعى وصيد السمك والزراعة ، هذا الى جانب خصائص هذه البيئة •

وقبل المضى فى دراسة أوضاع وحياة مجتمع النوير ، يجدر بنا أن نعرف بعض الفروق الأساسية بين مجتمعات شمال السودان وجنوبه حيث يقع مجتمع الدراسة •

يعتبر خط عرض ١٢° شمال خط الاستواء الحد الفاصل بين نوعين مختلفين من الثقافه • ففى شمال السودان ينتشر فيه الدين الاسلامى والزراعة المنظمة ، والنظم الحكومية الحديثه واللغة العربيه هى السائدة ، والحيوان الأكثر انتشارا فى هذا الجزء من السودان هو الجمل •

أما جنوب خط عرض ١٢° شمالا يوجد السودان الجنوبى ، وأعداد قليله من سكانه عرفت اللغة العربية على يد تجار السودان الشمالى • كما يسود العرى فى هذه المنطقه وان كنا نرى له أشكالا متعددة فهناك العرى التام كما هو الحال تقريبا عند مجتمع النوير ، والعرى الجزئى كما هو الحال فى مجتمع الأزندى • والحيوان الأكثر انتشارا فى قبائل الجنوب هو البقرة ، واذا انعدم فى بعض الأماكن فيرجع ذلك الى انتشار الحشرات التى تضر بهذا الحيوان •

هذا ويسود مجتمعات الجنوب الوثنيه ــ وحينما يقول الأنثروبولوجى أن جنوب السودان يسوده الوثنيه فانه لا يعنى ذلك أن الناس هناك بلا ديانه ، فالأنثروبولوجى يضع الوثنيه والديانات الأخرى على قدم المساواة ، فليس هناك أرقى وأفضل من دين وآخر ، وهو يدرس الديانات من حيث وظيفتها الاجتماعية ، أى من حيث تأثيرها فى النظم والأوضاع القائمة •

هذا ــ ويعتبر النوير أحد القبائل المعروفة بالقبائل النيلية

Nilates في جنوب السودان ومثلهم قبائل الدنكا Dinka والشيلك Shillouk وغيرهما من القبائل التى تعتمد أساسا فى حياتها على الماشية الموجودة فى أعالى النيل وبالذات بالقرب من بحيرة فكتوريا ٠

وينتشر النوير فى منطقة الحشائش " الساڤانا " فى مستطيل أو متوازى مستطيلات يشمل بحر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال والبحر الأبيض فى جنوب السودان وكذلك المنطقة الواقعة جنوبى نهر السوباط ٠

ويقدر ايفانز بريتشارد عدد سكان مجتمع النوير عند اجرائه البحث ١٩٣٠ أسرة بحوالى ٢٠٠ ألف نسمة ٠ وهم طوال القامة ، سود البشرة ، لهم رؤوس غير عريضه Narrow - Headed .

ويعيش النوير حياة قاسية جدا فى ظروفها الحيوية ، وهو مايفسر قسوتهم ٠ ومع هذا فانهم يعتبرون بلادهم من خير بلاد العالم ان لم تكن أفضلها ، وذلك لأنهم يرون الصحارى تحيط بمنطقتهم ولا يتصورون أن يكون وراء هذه الصحارى بلاد أخرى ، حتى أنهم الى سنة ١٩٣٦ كانوا يعتقدون أن مدينة الخرطوم فى نظرهم هى بلاد البيض أو الأوربيين ٠

ويعتمد النوير فى غذائهم على الماشية أو بعبارة أدق على لبنها ومستخرجاته ، وتعيش الماشية على الحشائش التى تنمو فى تربتها الصالحة ووفرة الماء بها ٠ والتربة فى مجتمع النوير عبارة عن طمى فقير يتشقق بفعل حرارة الشمس ويخلف شقوقا عميقه تختزن فيها مياه النيل وحياة الأمطار التى تساعد على نمو نوع من الحشائش القصيرة التى تحبها الماشية فى أوقات الجفاف ٠ وحتى أن " ايفانز بريتشارد" يقول بأنك اذا أردت دراسة حياة النوير فابحث عن البشرة ، وذلك لما يلعبه هذا الحيوان من دور هام فى حياتهم ٠

كما نجد فى السنوات العادية يبدأ سقوط المطر فى مجتمع النوير

خفيفا فى شهر أبريل ، ويبلغ شدته فى يوليو وأغسطس حيث يبرد الجو وتحجب السحب أشعة الشمس معظم النهار ، ثم تهب رياح جنوبية غربية شديدة . أما فى شهر أكتوبر فيبدأ يقل المطر ثم يتوقف تقريبا فى منتصف شهر نوفمبر حينما تبدأ رياح الشمال فى الوصول الى المنطقة . أما شهور الحرارة الشديدة فهى مارس وأبريل .

ومما يؤثر فى حياة النوير ندرة الأمطار وقلة مياه الأنهار أحيانا ، مما قد يعرضهم الى مجاعة تحدث مرة كل بضع سنوات ، كذلك تؤثر كثرة الأمطار وازدياد منسوب مياه الأنهار على حياتهم مما يؤدى أيضا بهم الى المجاعة ذلك لأن هذا الأمر لا يسمح للماشية بأن تجد المراعى اللازمة لها .

وفيما يلى يمكننا تلخيص خصائص اقليم النوير بوجه عام على النحو التالى :-

١ ـ الأرض مسطحة تماما .
٢ ـ التربة متميزة بالطمى .
٣ ـ ندرة الغابات وانعدام الأشجار .
٤ ـ تغير الحشائش الاقليم أثناء المطر .
٥ ـ الاقليم عرضه أحيانا لأمطار غزيرة .
٦ ـ تجتاز الاقليم أنهار كبيرة تفيض سنويا .
٧ ـ يقع الجفاف التام اذا اجتمع توقف المطر مع قلة المياه فى الأنهار .

ويلاحظ هنا أن هذه الخصائص تتفاعل معا وتكون النظام البيئى Enviromental System الذى يوجه حياة النوير ويؤثر فى تركيبهم الاجتماعى .

ومن مظاهر النشاط الاجتماعى المبنى على أسس أيكولوجية هو استمرار تحرك النويريون والكفاح للحصول على الحاجات الضرورية

للحياة ، تلك الحركات والانتقالات التى لابد أن يتعرض لها النوير فى حالة زيادة كمية المياه التى لديهم عن الحد اللازم أو فى حالة نقصانها ٠

ويذهب ايفانز بريتشارد الى أن هذه المسألة هى أول مشاكل النوير ، فزيادة المياه الناشئة عن كثرة الأمطار تؤثر فى الماشية اذا وقفت ساعات العمل طويلة من النهار فى الماء وتعرضت بسبب ذلك لأمراض معينة تعيب حوافرها ٠ ولانقاذ هذا الخطر بالنسبة للحيوان والانسان على السواء يضطر النوير الى التحرك بسرعة ونقل قراهم الىالمرتفعات ٠ وعندما يتوقف المطر بحيث يكفى حاجة السكان يضطر هؤلاء مرة ثانية الى النزول مرة أخرى بالقرب من البرك والبحيرات والأنهار ومناطق المياه الضحلة كالمستنقعات والبرك ٠ ونظرا لأن اقليم النوير مغطى بشبكة من الأنهار ومجارى المياه المتقاطعة فان الحصول على المياه المتخلفة من الأمطار لا يكون متعذرا ، غير أن بعض أجزاء من الاقليم لا توجد فيها هذه المياه ، وللحصول عليها يضطر النوير الى أن يحفر الآبار فى مجارى الأنهار الجافة ، وهذه عملية ليست هينة لأنها تستلزم عملا شاقا يشترك فيه عدد كبير من الأيدى العاملة ، وهذه الآبار قد تحفر كل سنة وهى ذات فتحات مستديرة يبلغ قطرها من قدمين الى ثلاثة أقدام ، أما عمقها فيبلغ من ٢٠ الى ٣٠ قدم ويتم حفر البئر فى ثلاثة أيام بشرط أن تتولاه أيدى كثيرة وأن تعمل جميعا بنشاط ، ويعرف النوير كيف يحفظون هذه الآبار نظيفة ، ولكل منزل بئره الخاص ، ويحاط عادة بسياج من الطين ، وتمنع عنه الأغنام ، ويدرك الناس هناك مصلحتهم فى استمرار نظافة هذه الآبار ٠

ومشكلة المياه عند النوير تتصل اتصالا وثيقا بالنباتات التى تعيش عليها الماشية ٠ ففى انتقالات السكان من مكان لآخر يراعى دائما البحث عن المرعى ومياه الشرب الصالحة ، وهم يعرفون أين توجد وأقصر الطرق لوجودها ٠ وكذلك يعرفون أن الأمطار المبكرة هى أكثر الأمطار فائدة لهم وعليها تتوقف سمنة الماشية ، لأنها تعطى البشائر الأولى

للحشائش الجديدة ، أو نمو الجذور الجديدة فى الأرض من جديد ، وهـذه الحشائش هى التى تقبل عليها الماشية وتفضلها عما عداها • هذا ويلاحظ أنه كلما تقدم المطر وازداد هطوله أصبح الرعى عسيرا لأن الأرض تغمرهـا حينئذ ، كما تغمرها أيضا مياه الفيضانات ، وهنا تكبر الحشائش جـدا ، وبذلك تنشأ مشكلة حقيقية يواجهها النوير ويترتب عليها أن يرتحـلوا يحتلوا مناطق الحشائش القصيرة الواقعة على سفوح القرى • وبمجـرد توقف المطر يسرع السكان للحشائش العالية الكثيفة يحرقونها حـتى يصلح الطريق للمرور • وبعد عملية الحرق تنمو فى أيام قليلة حشائـش أخرى قصيرة من النوع المفضل للماشية وفى الغالب لا ينمو من جديد الا الحشائش التى كانت لها جذور طويلة تصل الى المياه الكامنه فى شقـوق الأرض ولو لم يكن عند النوير هذه العادة ـ عادة حرق الحشائش الكبيرة ـ لما أمكن لماشيتهم أن تعيش وهى قوام حياتهم •

ومن المظاهر التى يتميز بها اقليم النوير أيضا وجود الغابات فـى حذاء النهر ، ولكن هذه الغابات لا تمتد الى الداخل بعيدا عن هـذه الأنهار ، وتغمر الحشائش الجميلة المنظر الحدود الجنوبية للاقلـيم ، ويليها نحو الجنوب المستنقعات الدائمة طول العام ، فالمرتفعـات الصخرية التى تغطيها بعض الحشائش • وهذا يعطينا فكرة عن فقـر الاقليم الذى يجب أن ندخله فى الاعتبار اذا أردنا دراسة الحياة الاجتماعية لمجتمع النوير •

والنوير يعلمون أن بلادهم رغم أنها كثيرة الخيرات ـ وجهـة نظرهم ـ الا أنها قد تتعرض للقحط من حين لآخر ، ولذلك فهم فى فـزع مستمر حول مصيرهم •

ان النوير رغم كونهم يشتغلون بالرعى والزراعة الخفيفة وقيـام اقتصادياتهم فى الاكتفاء الذاتى على هذين النوعين من النشاط فـان بلادهم أكثر ملائمة للرعى فقط ، وكان ينبغى أن يوجه عنايتهم له وحـده (للرعى) لولا أن الأبقار والثيران عندهم عرضه لبعض الأمراض القاتله ،

ولهذا فهم مضطرون للزراعة الخفيفة . والنويريون لا يستطيعون البقاء طول العام فى أماكنهم ، اذ عليهم التنقل ، فالفيضانات تدعوهم الى الهروب هم وماشيتهم والالتجاء الى الأراضى المرتفعه المجاورة لهم ، وحتى فى هذه الأمكنه المرتفعه يتنقلون سعيا وراء الماء ، وعلى ذلك فحياتهم متنقله أو كما يقول فى التعبير العلمى Transhumans ،وكلما كانت ماشيتهم لا تعطيهم حاجتهم من الغذاء ازدادت تنقلاتهم ، وهم يعتقدون أن اللحم واللبن لا يكفيان كغذاء اذ لابد أن يضاف اليهما الذرة والسمك ، ومن أجل ذلك كان النوير فى حركة دائمة سعيا وراء الرزق .

والنويريون لا يأكلون لحم الأبقار والثيران الموجودة فى بيئتهم لأنها بالنسبة لهم مقدسة ، وذلك لأن أسلافهم كانوا يمتلكونها وهؤلاء الأسلاف من الموتى موضع عبادة النوير الوثنيين ، واذا حدث وأن احتاج النويرى للحم الماشية اعتداء على ماشية جيرانهم ، أو أكلوا المريضة من ماشيتهم فقط .

وحياة النوير وتحركاتهم لا تتأثر تبعا للمرعى أو الحاجة الى مياه الشرب فحسب ، بل ان الحشرات الموجودة فى بيئتهم تدعوهم من وقت لآخر الى تغيير أماكن سكنهم ، وهذه الحشرات الكثيرة العدد فى هذا الاقليم تهدد الحياة تهديدا مباشرا ، لأن الماشية وهى كل شىء فى هذا المجتمع ، لا تهدأ ولا تستريح من شدة مهاجمة هذه الحشرات لدرجة تؤدى الى هلاكها اذا لم يعتنى بها أصحابها . ومن هذه الحشرات الذباب والبعوض وأنواع الجراد المختلفة . هذا وتتكاثر الحشرات فى أوقات المطر ، ثم تصبح أشد خطرا فى الفترة من يوليو الى سبتمبر وهى الفترة التى يلجأ فيها السكان وماشيتهم معا الى الأكواخ والحظائر بمجرد ظهور الشمس المحرقه لاتقاء ضررها . وعلى النوير فى هذه المدة أن يحكم اغلاق كوخه وأن يسد منافذ الهواء ويشعل النار للتخلص من البعوض ، وفى وسط الحظائر تحرق كميات كبيرة من روث البهائم الى

درجة أن يسود المكان دخان كثيف يتعذر معه رؤية الماشية وبغير هذه الطريقة لن تستطيع الحيوانات أن تستريح خلال الليل . وعند انتهاء الأمطار تقل مهاجمة الحشرات ، ولكن تتعرض الماشية لهجمات السباع الموسميه ، وهذا يعد خطر آخر يفهمه النوير فنجدهم يحفظون ماشيتهم فى هذه الفترة أطول زمن ممكن حتى فصل الجفاف من يناير الى مايو وفيه يمكن للماشية حينئذ أن تنام فى العراء .

ويلاحظ أن ايفانز برتشارد يسهب فى هذه التفاصيل المتعلقة بالأحوال المعيشية للدلالة على أن البدائى يستطيع أن يفكر لمصلحته، بل ويستطيع أن يجرى التجارب فى نطاق امكانياته للتغلب على المشاكل والصعوبات التى تواجه حياته ، ولو كانت عقليته تختلف عن عقلية المتحضرين لما استطاع أن يحافظ على حياته وحياة ماشيته بهذه الطريقة .

فى الحقيقة لا يمكن أن يحى شعب من الشعوب حياة تعتمد على البيئة وتتأثر بها أكثر مما يفعل النوير . حيث نجدهم يحاولون جاهدين أن يحافظوا على حياتهم فى حدود مقدرتهم المستمدة من امكانيات بيئتهم . أنهم يقاومون بيئة قاسية وليس لديهم من أسلحة مقاومتها الا دخان حرق المخلفات الحيوانية .

هذا ــ ومن الأوبئة التى تصيب الأبقار " طاعون المواشى " أما الأمراض التى يتعرض لها الانسان فأهمها الالتهاب الرئوى .

والنويريون ينظمون سياستهم الاقتصادية على الأساس المعروف فى علم الاقتصاد بعبارة Mixed Aconomy أى الاقتصاد المنوع . فهم مضطرون على الاعتماد فى حياتهم الى جانب الأبقار ــ التى كثيرا ما تهلك بسبب المرض والحشرات ــ على زراعة الذرة الخفيفة وصيد السمك، ومن أجل ذلك كانت الحاجة الى السمك من الأسباب التى تؤدى الى التنقلات والتحركات الكثيرة لسكان مجتمع النوير .

ويعتبر السمك طعام رئيسى عند النوير ، وهو موجود بكثـــــــرة بأنواعه الجيدة • وأنسب الأوقات لصيده عقب توقف الأمطار ، حيـــــث يتحرك النويريون عندئذ سعيا وراء الماء والمرعى والسمك معا •

هذا ــ ويبدأ موسم صيد السمك عند النوير فى شهور نوفمبر وديسمبـــر وبعض الأيام من يناير • فنجد الشبان والشابات يقتادون الماشيـــة الـى البرك التى توجد وسطها الحشائش المليئة بالأسماك ، ويعسكرون حولها طوال هذه المدة تاركين ورائهم فى القرى العجائز الذين يعملون فى هـذا الوقت فى حصد الذرة حيث يكون قد حل الموسم الثانى لحصادهـــا الى جانب عملهم فى ترميم أكواخ السكن وحظائر الماشية • وعند الانتهاء من الحصاد تعاد الماشية يرافقها الشبان والشابات الى القرى لتتغذى بأعواد الذرة المتخلفة ، وعلى الأخص تلك الحشائش المحيطة بالبرك التى بهـا السمك والتى تكون قد تلاشت حينئذ ، كما تكون مياه البرك قد جفـــت تماما • ولا يطول المكث بالقرى طويلا بعد ذلك لأن وقت الرحيـــل الى الاقامة حول البحيرات والأنهار يكون قد حل وحينئذ ينتقل الشبـــان والشابات وكذلك المتزوجون جميعا اليها ، ويكون هذا خلال شهرى ينايـر وفبراير •

ويمتاز اقليم النوير بكثرة ما فيه من الحيوانات البريه مثـــل (الجاموس البرى والخيل والحمار الوحشى ــ المعروف باسم الزبـــرا) ولكن السكان لا يعتمدون عليها كثيرا فى زيادة الثروة الغذائيه عندهم.. ولا يصطاد النويريون الحيوانات البريه الا من كان تنقصه منهم الماشيـــة حيث يعتبر هذا من علامة الفقر ، كذلك يوجد الدجاج البرى بكثـــــرة ولكنهم أيضا لا يحبونه ولا يأكلون بيضه •

والنوير يقبلون على أكل العسل النحل وموسمه فى ديسمبر ويناير من كل عام ، أما الفاكهة فلا تعتبر غذاء أساسى لخلو الاقليم من الأشجار • أما عن أهم المحاصيل الزراعية فى اقليم النوير فهى الذرة • ويجـــب أن تدخل فى الاعتبار أن النويريون لا ينظرون الى الزراعة على أنها عمـــل

يرتاحون اليه نظرا لما تتطلبه من عناء وجهد كبيرين ، كذلك أصبح همهم منصب على تربية الماشية أيضا وصيد السمك .

وينظر النويريون الى الحياة نظرة الرعاة ، وهم على أتم استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل المحافظة على ماشيتهم التى تعتبر أثمن شيء عندهم ، بل ان سبب الحروب التى تقع أحيانا بين النوير وجيرانهم - من الدتكا والأزندى - هو الحاجة الى المرعى ، وأن نشاطهم الاجتماعى ومعظمه اذا أردنا الدقه يدور حول الماشية ، حتى أن ايفانز بريتشارد قال لمن يريد أن يفهم سلون النوير هو " أن يبحث عن البقرة " حيث تدور حولها كل الأنظمة والمناشط الاقتصادية والاجتماعية لسكان تلك القبيلة .

فى الحقيقة - ان " ايفانز بريتشارد " بهذا العرض السابق لأثر البيئة على السكان فى مجتمع النوير انما كان يحاول أن يصل الى خطأ نظرية " ليفى بريل " العنصرية وليؤكد بأن البدائيون لا يختلفون فى درجات ذكائهم عن غيرهم من المتحضرون ، اذ نجدهم يتعاملون بذكاء مع بيئة الحياة فيها أكثر صعوبة من أى بيئة أخرى ، وهو ماتراه الى أى مدى أنهم يعرفون الكثير عن هذه البيئة وكيفية التغلب عليها .

٥ - التقرير الثانى للدراسة :

فى هذا التقرير يقول " ايفانز بريتشارد " أنه يتضمن نتيجتين هامتين أولها تتعلق بنظام فئات العمر The Age - Set System وثانيا تتعلق بنظام الزواج The Marriago - Set System من واقع الدراسة الميدانية (الحقلية) لمجتمع النوير كما عرفها وفيما يلى سوف نتناول بالتلخيص كل نظام على حدة .

أ - نظام فئات العمر :

يقول " ايفانز بريتشارد " أنه فى مجتمع النوير نجد أن كل فئة

1- E. F. Evans Pritchard,"Kinship and Marriage Among The Nuer" , Oxford, 1951.

من فئات العمر لها اسم معين وتكون ما يشبه الطبقه • حيث نجد أن كل فرد من الذكور يجب أن يمر بعملية قاسية لكى ينتقل من مرحلة الصبا (من ١٤ـ١٦ سنة) الى مرحلة الرجولة From Bouhood to Manhood حيث تقطع جبهته بسكين حاد سته مرات من الأذن اليمنى حتى الأذن اليسرى • ويقوم بها شخص معين لمجموعة من الصبيان دفعة واحدة فى نهاية فصل الأمطار نظير أجر فى العادة يكون حربة لصيد الأسماك • ويقيم النويريون الحفلات ابتهاجا لهذه المناسبة حيث تذبح فيها القرابين ويقدم الشراب • وتسمى هذه العملية باسم " عملية التكريس " وبعدها يصبح الفتى رجلا ويحق له الاشتراك فى الحرب ورعى الماشية ومغازلة الفتيات والرقص معهن وأن يختار زوجته منهن أيضا ، كما يحرم عليه أن يحلب الماشية طول حياته •

هذا ـ وترتبط كل مجموعة من الفتيان فى جيل واحد علاقة خاصة ، حيث قد أجريت لهم حفله " تكريس واحدة " وكونوا بذلك فيما بينهم طبقة واحدة أطلق عليها أحد الأسماء الموجودة فى البيئة • وأصبح يحرم على أفراد الطبقة الواحدة الزواج من ابنة أحد زملائهم فى التكريس ، كما يسود التعاون فيما بينهم كأنهم أخوة •

ب ـ نظام الزواج عند النوير :

وفيما يتعلق بنظام الزواج عند النوير فانه لا يتم الا بعد دفع العريس المهر لعروسته وهو تقديم رؤوس الماشية التى تتراوح بين (٢٠ ـ ٤٠ رأس) ويكون لرئيس العائله السلطة المطلقة للتصرف فى المهر وفى قطيع الماشية •

هذا ـ وفى العادة يتزوج الشاب الأكبر فالأصغر سنا ، ويدفع المهر من أبقار أبيه ، ولا يتزوج الابن التالى الا بعد أن تتناسل الماشية ويعود القطيع الى قوته الأولى من حيث العدد والمقدرة الانتاجية • وبعد وفاة رئيس العائلة تبقى الماشية كمحور يدور حوله الحياة

الاجتماعية للأسرة ، وتعتبر ملكا لها جميعا بلا استثناء ، ولا يتفرق الأبناء بعد الزواج ، بل يبقون فى بيوت متلاصقه أو متجاورة ، وتظل الماشية تربط بين الأخوة حتى بعد أن يتزوجوا وينجبوا أطفالا ، بل تزداد الصلة بينهم وثوقا كلما تزوجت لهم أخت لأن معنى ذلك أن يقدم لها مهر من قطيع العائلة الكبرى التى ينتسبون اليها .

ومن عادات النوير فى الزواج نجد أن الفتاة عندما تتزوج يوزع مهرها أحيانا من رؤوس الماشية على والدها ووالدتها وأجدادها وأعمامها وأيضا الأقارب البعيدين من الرجال .

هذا ــ والواقع أن درجة قرابة الشخص لآخر ومدى قوتها تتضح من مقدار نصيبه من الماشية التى يحصل عليها فى مناسبات الزواج ، ولا يكاد النويرى يفرق بين نفسه وبين الماشية فهو يعيش بينها مثلها تماما عارى البدن ، سواء أكان رجلا أو أمرأة ، وينام فوق حظائرها ، بل يتخذ له اسما مشتقا من اسم البقرة أو الثور المفضل عنده . حتى أننا اذا أردنا أن نعرف شجرة النسب لاحدى العائلات ، كانت النتيجة مناسبة لأنساب الثيران والأبقار ــ وهذا ما جعل " ايفانز بريتشارد " يقول أن دراسة النوير هى دراسة البقرة أيضا .

أما عن أنماط الزواج عند النوير فنجدها أربعة أشكال هى كالتالى :

أولا : النمط العادى للزواج :

تتزوج الفتاة فى سن ١٧ أو ١٨ سنة ــ وهى قبل أن تتزوج لا حرج عليها من الاتصال الجنسى بأى واحد من الشباب ، بل يمكن أن يكون لديها عشيقا واحدا فى سن السادسة عشرة .

وفى العادة لابد من موافقة أسرة الفتاة على الشاب الذى يتقدم للزواج منها . وتقام حفلات الزواج غالبا فى فصل الأمطار حيث يتوافر الغذاء . ولا ينزعج الفتى ان وجد عروسه ليست عذراء . وفى اليوم

التالى يحلق للزوجه شعرها كعلامة مميزة للمرأة المتزوجة [١] .

وفى يوم الزفاف تقيم العروسة فى مسكن والديها ويظل العريس أيضا يعيش مع أسرته كما كان قبل الزواج ، وعليه أن يقوم بزيارة زوجته ليلا من وقت لآخر ، ويستمر هذا الوضع حتى تنجب الزوجة ، وعندئذ يعتبر الزواج قد تم ، ثم تنتقل الى مسكن بجوار أسرة زوجها ، وبعد أن تفطم طفلها الأول .

ثانيا : زواج المرأة بالمرأة :

أحيانا تكون المرأة عقيما فترغب فى أن تقوم بدور الرجل فتختار احدى الفتيات لتتزوجها وتقدم لأسرتها المهر ، وتطلب من أحد الأقارب أو الجيران أن يقوم بالاتصال جنسيا بالزوجة لينجب لها أطفالا باسمها يخاطبونها بقولهم (يا أبى) كالرجل تماما ويرثون ثروتها .

ثالثا : زواج الشبح Ghost :

ويعنى أن يقوم أحد أقارب الشخص المتوفى الذى لا يوجد له أبناء من أن يتزوج فتاة باسم الشخص المتوفى وينجب له أبناء باسم هذا المتوفى .

رابعا : الزواج الليفراتك Leviratic :

وفيه أن الأرملة لا يجوز أن تتزوج بعد وفاة زوجها ، بل على شقيق زوجها أن يتصل بها جنسيا وينجب منها أطفالا باسم أخيه المتوفى [٢] .

1- Ibid.

2- Ibid.

٦ ـ خاتمـــه :

فيما سبق قدمنا عرضا ملخصا لتقرير الدراسة التى أجراها " ايفانز بريتشارد " على قبائل النوير فى جنوب السودان ، والتى حاول فيها أن يتأكد من صحة نظرية " ليفى بريل " العنصرية والتى سادت الفكر الاجتماعى قبل القرن التاسع عشر وشغلت أذهان الأنثروبولوجيين منذ تلك الفترة وحاولوا فيها من خلال دراساتهم على المجتمعات البدائية أن يثبتوا خطأها حتى أن الفرض الأساسى عند كثير منهم تناول هذا الموضوع (١) وعلى سبيل المثال " ريفرز " فى دراسته على قبائل " التودا " وجون امبرى فى دراسته على قبائل الهنود الحمر فى " اكلاهوما " و " رادكليف براون " فى دراسته على قبائل " الأندمان " ـ لعلنا بهذا العرض نكون قد اسهمنا فى اثراء التراث النظرى للدراسات السسيوأنثروبولوجيا الخاص بدراسة المجتمعات البدائية ـ ولو بالنذر اليسير .

1- Remon Firth, " The Human Types " Oxford, 1962, 2 ED., P.P. 37 - 42.